الثقافة والتربية في فكر عبد الله شريط

The Culture And Education In Abdallah Chreit's Thought

الدكتور/ محمد بومانة
أستاذ محاضر قسم -أ-،
جامعة الجلفة، الجزائر،
boumana76@yahoo.fr

تاريخ الارسال: 2018/03/16 تاريخ القبول: 2018/12/09 تاريخ النشر: 2018/12/31

ملخص:

لم يقتصر أثر الثورة التحريرية على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للجزائريين بل كان له امتدادات على الحياة الفكرية كذلك. حيث حاول بعض أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المستقلة مواصلة الفعل الثوري في طرح العديد من القضايا الثقافية والفكرية الشائكة، وذلك من خلال المناداة بثورة ثقافية شاملة تعيد الثقافة الجزائرية الأصيلة بكل مكوناتها الى مكانتها الطبيعية.

ويعد الأستاذ عبد الله شريط أحد هؤلاء الإعلام. فقد نادى -بكل صدق ووطنية- إلى إحداث ثورة ثقافية تحرر الإنسان الجزائري من قيود الآفات التي تحاصره كالجهل والأمية والخرافات . لأن وقع هذه الآفات ليس بأقل من وقع العيش في ظل الاستعمار الغاشم.

ولم يجد الأستاذ عبد الله شريط أفضل من التربية والتعليم كوسيلة لتحرير العقول وتنمية رأسمال البشري الذي يعتبره أهم وأولى من تنمية رأس المال المادي. لذلك فقد دعا إلى سياسة تربوية وثقافية مصحوبة بفكر ثوري حقيقي.

الكلمات المفتاحية: الثقافة، التربية، الثورة، التحرير، الفكر الثوري

Abstract:

Professor Abdallah chreit is one of Algerians' intellectuals. Who pleaded for creating a deep cultural revolution to free the Algerian from The lesions that besieged him as ignorance, illiteracy and myths, because its impact is the same as the colonization impact.

He had not found other source more than education, as a means for free the Algerien minds, and for development of the human capital. Therefore, he called for a cultural and educational policy, accompanied by a real and true revolution in thought.

The keywords: culture, education, revolution, liberation, Revolutionary thought.

مقدمـــة:

يعد الأستاذ عبد الله شريط من المفكرين القلائل في الجزائر المعاصرة الذين يمتلكون مشاريع فكرية صريحة في مبناها ومعناها تطمح إلى النهوض بالمجتمع الجزائري والأمة العربية الإسلامية عامة، وقد اتسم هذا المشروع بالواقعية التي كانت العنوان الأبرز له، واستند إلى منهج تحليلي نقدي جريء متجرد من كل العواطف "ماعدا العاطفة الوطنية الخالصة[1] وارتكز على مبادئ ثلاث الوطن والاشتراكية واللغة العربية.

كان الهاجس الأكبر الذي أرق الأستاذ عبد الله شريط هو: كيف يمكن الخروج من النفق المظلم الذي دخلت فيه الأمة الجزائرية خاصة والعربية عامة وكيف السبيل إلى مواصلة النهج الثوري في مجالات الثقافة والتربية وكل ما له علاقة ببناء الإنسان الجزائري والعربي الفاعل حضاريا، لكن قبل ذلك كان عليه أن يقوم بعملية تشخيص دقيق للأسباب الاجتماعية والثقافية والتاريخية التي أدت إلى هذا الوضع.

تعد المسألتان الثقافية والتربوية من أعقد المسائل التي طرحت في الدولة الجزائرية المستقلة، وذلك لاعتقاد أغلب الجزائريين أن المعركة الجديدة بعد طرد المستعمر هي معركة الثقافة والتربية من أجل إعداد إنسان جزائري جديد يتمكن من تجاوز الآثار الخطيرة للفترة الاستعمارية ويتطلع لمستقبل واعد، لذلك كان لزاما عليهم أن يعملوا جاهدين على إحلال الثقافة الوطنية محل الثقافة الأجنبية التي حاول المستعمر غرسها في أذهان الجزائريين على مدى أكثر من قرن وثلاثين سنة.

لم يكن الأمر سهلا على الجزائريين لأن الأمر لم يأخذ مساره التربوي البيداغوجي الطبيعي، بل اخذ شكل معركة فكرية إيديولوجية خطيرة طرفاها ليسا جزائريا وأجنبيا، بل جرت بين الجزائريين أنفسهم، انتصر بعضهم للثقافة الوطنية بكل مكوناتها، وانحاز آخرون لثقافة الأخر، مما خلق ثنائية ثقافية رهيبة داخل المجتمع الجزائري، امتد أثرها السلبي إلى كل جوانب الحياة.

داخل هذا الجو المفعم بالخلاف والجدل تبلور فكر الأستاذ عبد الله شريط، والذي لم يكتف بملاحظة ذلك السجال من بعيد، بل عمد إلى المشاركة الايجابية الفعالة في المشهد الثقافي الجزائري والإسلامي عموما فأدلى بدلوه في معظم القضايا السياسية التنموية والثقافية والتربوية والاجتماعية التي طرحت في زمانه، ولم يبخل على أمته بالرأي السديد

والقول الصادق الذي ينم وعن إحساس عميق بالمسؤولية التي شعر بها بعدما وجد أن من واجبه أن يسهم مساهمة إيجابية في إحداث ثورة فكرية وثقافية تتابع الإنجازات الضخمة التي حققتها الثورة المسلحة، فـ " الأستاذ لا يزعم الحياد المنهجي لأنه لا ينظر إلى الثقافة كنظرته إلى الأشياء، فهو لا يدعي الحياد لأنه يدرس الثقافة في فضاء تاريخي معين، أي أنه يدرس ذاته الثقافية، ومن ثم فهو لا يستطيع أن ينسلخ منها حتى يستطيع تشييئها."[2]

ومصطلح الثورة الثقافية واسع وشامل لمجالات متعددة لا يقتصر على الثقافة فقط، بل يمتد إلى السياسة والاجتماع والإدارة والإعلام وغيرها غير أننا اخترنا الحديث عن تصوره للعلاقة القائمة بين التربية والثقافة دون غيرهما من المسائل، لأن ذلك يتطلب بحوثا متعددة.

الأستاذ عبد اللّه شريط: حياة كفاح ونضال

يعد الدكتور عبد الله شريط أحد أعلام الفكر الفلسفي المعاصر في الجزائر والعالم العربي برمته، ولد في مدينة مسكيانة بولاية أم البواقي سنة 1921 ، وهو مفكر موسوعي جمع بين التعليم الديني والتعليم الفلسفي دون أي تناقض، وتوفي سنة 2010 بعد مسار حافل بالإنجازات والعطاءات الفلسفية ، سواء على المستوى العملي من خلال مساهمته الفعالة في تكوين وتنوير أبناء الشعب الجزائري من خلال تدريسه للفلسفة ومختلف العلوم الاجتماعية داخل أسوار الجامعة التي كان أحد بناتها، أو على المستوى الأكاديمي من خلال إثرائه للمكتبة الوطنية بعدد معتبر من الكتابات العميقة ومنها:

- الجزائر في مرآة التاريخ، الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، حوار إيديولوجي حول المسالة الصحراوية والقضية الفلسطينية، مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الإيديولوجي في الجزائر، المشكلة الإيديولوجية في الجزائر وقضايا التنمية، تاريخ الثقافة في المشرق والمغرب، معركة المفاهيم، المنابع الفلسفية في الفكر الاشتراكي، من واقع الثقافة الجزائرية، نظرية حول سياسة التعليم والتعريب، الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية؛
- وغيرها من المؤلفات المهمة والمقالات العميقة التي ملأت الفراغ الرهيب الذي كانت تشهده الساحة الثقافية آنذاك؛

- تتلمذ في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت حصنا منيعا للهوية الوطنية بأبعادها المختلفة، كما تلقى العلم في تونس وسوريا، وهو ما ساعده على تكوين خلفية فكرية عربية إسلامية أصيلة رغم معرفته الواسعة باللغة والثقافة الفرنسية؛
- استجاب لنداء الوطن فانظم إلى النضال الوطني من أجل الانعتاق من قيود المستعمر، فكرس قلمه للتعريف بالثورة والدفاع عنها من خلال إسهاماته الصحفية المميزة خاصة في تونس؛
- عاد إلى الجزائر بعد الاستقلال ليسهم في معركة البناء، وخاصة في مجال التعليم العالي حيث كان من المؤسسين الأوائل لجامعة الجزائر المستقلة.

والواضح من خلال قراءة عناوين كتب الأستاذ شريط أن اهتمامه كان منصبا على القضايا الثقافية والفكرية التي كانت تشغل مجتمعه وقد تناول ذلك بأسلوب فلسفي شيق بعيد عن التكلف والتعقيد، لأن الفلسفة في نظره بريئة من تهمة التعقيد التي ألصقت بها، وإنما وصفت بذلك نتيجة الأسلوب المستغلق الذي يتبعه دارسو الفلسفة عادة، لذلك فقد اختط لنفسه هذا الأسلوب البسيط في مبناه العميق في معناه.

وقد كرس الدكتور شريط رحمه الله حياته للنضال الوطني ثم النضال الفكري في سبيل نهضة الأمة الجزائرية، فانتقل من معركة تحرير الوطن من المستعمر إلى معركة لا تقل أهمية و هي تحرير العقول مما علق بها من مثبطات وذلك من خلال إحداث تغيير في ذهنية الإنسان الجزائري والعربي المسلم التي أصابها كثير من الأمراض ...، وتلك مهمة الفلسفة عنده أي " الاهتمام بمسائل الناس الفكرية المرتبطة بحياتهم الواقعية المعاشة، ومعناها ثانيا استكشاف المستقبل من خلال نبضات الحياة الراهنة بطريقة تتجاوز الواقع .. ومحاربة المعطلات الخرافية والانفعالية المفرطة سواء على مستوى الجماهير أو الساسة."[3]

لذلك يمكن اعتبار الأستاذ شريط مثالا للنخبة المثقفة الفاعلة المتفاعلة مع قضايا مجتمعها الفتي، فقد كرس عمله الصحفي والجامعي لطرح الإشكاليات الحقيقية التي يعيشها المجتمع ومحاولة إيجاد حلول واقعية لها بروح علمية فلسفية قائمة على التحليل والنقد البناء.

إن أهم ما يميز التفكير الفلسفي عند عبد الله شريط نزعته الواقعية بمعنى اقترابه من الواقع المعيش، وتكريسه للفكر الفلسفي الإنساني القديم والحديث في معالجة إشكاليات مجتمعه، ومنها المشكلات الثقافية والتربوية التي يعد حلها مدخلا مهما لمعالجة المشكلة التي شغلت أذهان الجزائريين بعد الاستقلال، ونعني بها مشكلة التنمية وكيفية الخروج من التخلف المترتب عن طول الحقبة الاستعمارية المظلمة.

المنابع الفلسفية لفكر الأستاذ عبد الله شريط:

نقصد بالمنابع الفلسفية أهم المصادر التي استقى منها الأستاذ شريط فكره، مع التأكيد على استقلاليته الفكرية التامة، فرجوعه إلى تلك المصادر لم يكن بشكل ميكانيكي اجتراري، بل رجوعه إليها كان لضرورة منهجية ليس إلا، حتى يأخذ منهم المبادئ الكبرى الموجهة لفلسفاتهم ويستعين بها كإطار فلسفي لإصلاح واقع الأمة. ويمكن أن نشير في هذا المجال إلى:

- **الشيخ العلامة ابن باديس:** وكل فكر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فقد كان أحد طلبتها النجباء، لذلك كان تأثره واضحا بمنهجها وفلسفتها، وخاصة فكر رائدها الشيخ عبد الحميد بن باديس " استلهم الأستاذ شريط من المنهج الباديسي الكثير من أفكاره في النهضة والإصلاح وخاصة الجانب العملي الذي يتجنب الإغراق في التنظير والتجريد و عدم الانعزال عن الناس في حلقات ضيقة من أهل الفكر والذكر، فنجد الأستاذ في مدرجات الجامعة وفي مختلف وسائط التبليغ يحاور أقرانه ويتحمس لأفكاره ويضع الوقائع في ميزان النقد ويخرجها من العنعنة (عن فلان '"عن فلان'") والسردية الكرونولوجية."[4]

وقد كان الأستاذ شريط يدعو دوما إلى محاكاة الثورة التي قام بها العلامة ابن باديس في المجال الديني والقيام بما يشبهها في المجال الثقافي والتربوي واللغوية، لأن الرجل لم يكن يعيش للجزائر فقط، بل كان هو الجزائر فعلا؛

- **الفيلسوف مالك بن نبي:** يتقاطع الأستاذ شريط مع الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي في كونهما عالجا نفس الإشكالية، ألا و هي إشكالية التخلف والانحطاط المتعدد الأوجه الذي تعاني منه المجتمعات الإسلامية، حتى و إن كان العنوان البارز الذي أعطاه مالك بن نبي لإسهاماته هو البحث عن شروط النهضة والإقلاع الحضاري من جديد، فإنه

يتقارب كثيرا مع الإشكاليات التي طرحها الأستاذ شريط، وإن اختلفت تصوراتهما لأسباب ذلك التخلف وسبل الخروج منه؛

- **العلامة ابن خلدون :** يمكن اعتبار الأستاذ عبد الله شريط الممثل الحقيقي للفكر الخلدوني في الجزائر، حيث نجده يوظف نزعته الواقعية في تحليل مجمل الإشكاليات التي يعيشها المجتمعات الإسلامية المعاصرة دون أن يكون ذلك بشكل ألي أو مصطنع، بل بحس إبداعي راق فيه كثير من الدقة و الوجاهة " إن الفلسفة الاجتماعية الخلدونية عند عبد الله شريط هي محاولة نقدية إبداعية تعبر عن ذاتية و أصالة وإنية ثقافة وحضارة، فهي موقف من سائر الفلسفات النافذة في صنع المصير الإنساني، وخاصة منها الفلسفات العربية المعاصرة المنحرفة والمنسلخة عن التواصل التاريخي العربي الإسلامي.[5]

ويعترف الأستاذ شريط أن اختياره موضوع "الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون" كموضوع لرسالته في الدكتوراه التي حصل عليها عام 1975 لم يكن عشوائيا، بل كان اختيارا مدروسا نابعا من شعوره بحدوث انقلاب أخلاقي خطير عند الجزائريين والمسلمين عموما، وهو ما جعله يبحث عن تفسيرات وتعليلات لهذا الانقلاب في الفكر الخلدوني، لأن العلامة ابن خلدون كان من أعرف الناس بطباع وأخلاق المسلمين مغربا ومشرقا؛

- **المربي جون ديوي:** نجد الفلسفة البراغماتية ماثلة في مجمل فلسفة الأستاذ شريط، خاصة فيما يتعلق بتفضيله المنهج الواقعي العملي على المنهج النظري التأملي المحض، وهذا جوهر الفلسفة البراغماتية القائمة بالأساس على أولوية العمل على النظر، وعلى اعتبار التطبيق العملي معيارا لصدق الأفكار، لذلك نجد اسم ديوي يتردد كثيرا في كثير من أعمال شريط عبد الله؛
- **الفكر الاشتراكي:** لم يخف الأستاذ عبد الله شريط إيمانه بالاشتراكية التي اعتبرها السبيل الوحيد لخلاص الدول المستقلة حديثا، والجزائر واحدة منها، ولم يتردد في الدعوة إلى تبني هذا المذهب، في صورته الصحيحة كأساس لكل بناء اقتصادي أو ثقافي أو اجتماعي، وحاول جاهدا التوفيق بينه وبين الدين الإسلامي رغم صعوبة ذلك. غير أن ولع الأستاذ شريط بالاشتراكية لم يمنعه من التنبيه إلى التزييف الذي تتعرض له من بعض تجارها كما قال، ودعا إلى ضرورة تعليم الناس الاشتراكية الصحيحة و "أن نصارح الشعب ليست شرا وليست إفلاسا وتخريبا، وإنما هي نظام بني على العلم،

وإذا ما مارسناه عن جهل فإن ضرره يصبح أكثر من نفعه" على أننا "لن نجعل الاشتراكية دينا مقدسا لا يتطرق الشك إلى عقائده، ولا يقبل المناقشة في مبادئه."[6]

وعموما، فإن عودة الأستاذ عبد لله شريط إلى هؤلاء الأعلام لم تكن عودة إلى الوراء من أجل عبادته كما يقول هو، بل كانت عودة واعية لا تطلب منهم حل مشاكلنا الراهنة ولا تحملهم مسؤولية وضع لم يساهموا فيه لأنه كان يقول دوما أن المثقف الحقيقي ليس من يعرف أكبر قدر مما قاله السابقون، إنما هو " من يسيطر على مادة ثقافية ويتصرف فيها ويغيرها مع الحياة."[7]

الحاجة إلى ثورة ثقافية:

اختلف الباحثون في تحديد مفهوم واضح للثقافة يعبر عن كل ما تشمله من عناصر ومكونات، لكن عموما يمكن القول أن "الثقافة هي جملة الأفكار والمعارف والمعاني والقيم والرموز، والمشاعر والانفعالات والوجدانيات التي تحكم حياة المجتمع في علاقاته مع الطبيعة والمادة، وفي علاقات أفراده ببعضهم وبغيرهم من المجتمعات، وبهذه الألوان من الفكر والمعاني والتعبير يتميز المجتمع الإنساني باعتباره صانعا وناقلا لعناصر الثقافة جيلا بعد جيل."[8]

الحديث عن الثورة في المجال الثقافي في أي مجتمع من المجتمعات يستلزم القول بأن الوضع الثقافي فيه غير مقبول ويستدعي تحركا سريعا من أجل تصحيحه من قبل الفاعلين في هذا المجال، لأن " الثورة بالمفهوم الحديث لا تنطبق على مجرد تغيرات سطحية في صور الحياة وأشكالها ولا تقتصر على جزئية واحدة، وإنما تحدث تغيرات كبرى تؤثر في المجتمع طولا وعرضا وعمقا."[9]

لقد كان إيمان الأستاذ شريط راسخا بالحاجة إلى القيام بثورة أخري مكملة للثورة المسلحة التي أنجزها الجزائريون، ولن تكون هذه الثورة الجديدة إلا ثورة ثقافية، تستبدل فيها الوسائل، لكن هدفها لا يختلف كثيرا عن هدف الثورة المسلحة، والمتمثل في إثبات ثقافتنا الوطنية العربية الإسلامية أمام الثقافة الفرنسية التي استحكمت في قلوب وأذهان كثير من الجزائريين، رغم تحقيق الاستقلال السياسي.

"أدرك عبد الله شريط منذ شبابه المبكر، أن الانتصار العظيم على العدو الكولونيالي الفرنسي هو المفتاح والبداية التي تمهد الطريق لاستكمال مشروع التحرير، ومواجهة

حليف الكولونيالية الخطير، ألا وهو التخلف الموروث والمتراكم في الأذهان والسلوكات الذي كان من مضاعفاته اعتقال العقل وتلويث الروح، والغفلة عما كان يجري في أروبا خلال عصر النهضة في أوائل القرن الرابع عشر."[10]

ويرجع الأستاذ شريط غياب العمل الثقافي السديد في الجزائر إلى غياب رؤية واضحة للثورة الفكرية والثقافية خلال الثورة وبعد الاستقلال وذلك "إما لعجز منهم أو لسوء التصرف السياسي في استخدامهم، أو لأنه لا يوجد عندنا هذا الصنف من المثقفين القادرين على العمل العقائدي، والذين هم مهندسو البناء الاجتماعي"[11]

وهذا الغموض في السياسة الثقافية الوطنية في تلك الفترة الحساسة من تاريخ البلاد هو سبب كل المعارك الفكرية والثقافية التي حدثت بعد ذلك وذلك لأننا لم نمتلك سلاحا فكريا واضحا، وهو ما دفع بنا إلى الدخول في متاهة الارتجال والفوضى.

وحتى تنجز هذه الثورة الثقافية على أحسن وجه وأكمل صورة يشترط الأستاذ شريط أن تكون مصحوبة بفكر ثوري حقيقي يدفعها إلى الأمام ويعطيها القوة الكافية ويجعلها تتخطى العقبات والصعاب مثلما تغلب الجزائريون على العوائق في سبيل انجاز ثورتهم المسلحة وطرد المحتل من بلادهم، وهذا الفكر الثوري "هو أخلاق ملتزمة تسيطر على الذاتية وترفع عنها، وفكر عملي يؤمن بالمواطن ويعمل من أجله في عهد إنشاء الدولة وبناء المجتمع قدر ما كان بالوطن في عهد المحتل الأجنبي ويضحي من أجله."[12]

غير أن هذه الثورة الثقافية المنشودة لا تتم دفعة واحدة لأن ذلك يدخلها في غياهب الفوضى ويمنعها من تحقيق أهدافها، بل فعل متدرج على النحو التالي:

المرحلة الأولى: تتمثل في تشييد الجانب المادي لهذه الثورة ممثلا في بناء المدارس والجامعات وغيرها، وهي مرحلة أساسية لا غنى عنها لكنها لا تكفي وحدها لإحداث الثورة؛

المرحلة الثانية: ويسميها الدكتور عبد الله شريط بالمرحلة النقدية ويتمثل نقد الواقع الثقافي في مجالات اللغة والفنون والدين، والوقوف على مواطن القوة حتى ننميها، وعلى مواطن الضعف حتى نعالجها؛

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة إحداث التغيير العميق، وذلك لن يتحقق إلا من خلال توفر بعض العوامل مثل العلم والعمل والجرأة والفكر المتحرر.

ويمكن أن نطلق على المرحلة الأولى اســم "البنية التحتية" للثورة الثقافية لتعلقها بالجانب المادي، أما المرحلتين التاليتين فنطلق عليهما "البنية الفوقية" لأنهما يتعلقان بالجانب الفكري لها.

ومن هذا المنطلق فإن أول عمل ينبغي القيام به في هذا الإطار هو تشخيص وضعية الثقافة الجزائرية آنذاك، والتي رأى الدكتور شريط أنها ثقافة عقيمة لا تساعد على الإبداع، بل تعيقه بنزعتها القنوعة المفرطة، يقول الأستاذ شريط في هذا المجال "إن نفسية القناعة التي تغل أرواحنا منذ قرون قتلت فينا فضيلة الطموح ومكنت فينا الاكتفاء بالتقليد، وكل ما لدينا من الطموح يتعلق بالاستيلاء على متاع الآخرين، أما الطموح في الخلق والإنتاج فلم يستيقظ فينا بعد."[13]

إن تفشي هذا المرض القاتل ليس وليد العصر الحالي، بل يعود في نظر الأستاذ شريط إلى قرون خلت أصيب فيها العقل الإسلامي بما يمكن أن نسميه بالسكتة الفكرية التي فتحت الباب على مصراعيه لانتشار آفات عصر الانحطاط، ومنها اللجوء إلى التقليد والنقل والابتعاد عن الإبداع والاجتهاد.

ولا تتوقف أمراض الثقافة العربية، والجزائرية جزء لا يتجزأ منها، عند هذا الحد، بل نجدها تعاني من تناقضات داخلية شديدة الخطر مثل " تناقض بين اللغة المكتوبة واللغة المقروءة، وآخر بين ثقافة ارستقراطية وثقافة شعبية، وأخيرا تناقض بين مفاهيم وثوقية متحجرة وأخرى مؤمنة بالتقدم العلمي والتقني."[14]

إن السبيل إلى الخروج من هذه الدوامة يكمن في إحداث ثورة ثقافية تراعي متطلبات المجتمع ولا تتعالى عليها، فمن من أسوء أنواع الثقافة تلك الثقافة المتعالية التي تحتقر الشعب وتقنع ببعض المعارف الأكاديمية النظرية الجوفاء، في حين أنه ينبغي على المثقفين حتى يكونوا فعالين " أن يكون لهم حد أدنى من الاطلاع على ظروف بلادهم وأحوال شعبهم، أن يكونوا متحررين إزاء ثقافة الأجنبي وعقدة العظمة إزاء شعبهم."[15]

كما ينبغي لهذه الثقافة أن تتحرر من نوعين من الثقافة، الأولى ثقافة التراث المنحطة، والثانية ثقافة الأجنبي، ويجب أن لا نفهم من هذا الكلام أن الأستاذ شريط يناصب العداء للتراث أو يرفض الأخر، بل كل ما أراده هو تحرير الفعل الثقافي المبدع المتنور.

والخلاصة التي ينتهي إليها الأستاذ شريط أن "الثورات عندما يهمل جانبها الفكري لا تعود ثورات بل تصبح شعارات تغرر بأصحابها فيتوهمون أنهم ثوريون." [16]

ولتفادي ذلك، لم يفت أســتاذنا أن ينبهنا إلى بعض الأخطار التي قد تواجه قيام ثورة ثقافية حقيقية، ومنها:

- عدم الاهتمام بالتنظيم الفكري لشؤون الدولة والمجتمع من قبل القائمين عليهما؛
- الخوف من أن تبقى الثورة الثقافية مجرد شعار وهدف؛
- التركيز على الجوانب المادية للثورة الثقافية كإحياء الفن الجزائري واللغة الوطنية وإهمال الجانب الفكري.

لقد كان الأستاذ شريط عبد الله رائدا للفكر التنويري العقلاني في الجزائر فقد دعا إلى التخلص من الجهل والسذاجة وأثارهما، ولن يتسنى ذلك إلا بتشخيص أسباب انتشارهما بيننا أولا والعمل على بث ثقافة عقلانية تقوم على أســاس احترام العقل والاحتكام إلى معاييره ورفض كل التصورات اللاعقلانية التي استحكمت بعقول الجزائريين، والمسلمين عموما، لقرون طويلة بفعل عوامل داخلية وخارجية ثانيا.

التربية أداة الثورة الثقافية:

يرى كثير من فلاســفة التربية وعلمائها إن الوظيفة الرئيســية للتربية هي نقل التراث الثقافي والحضــاري للمجتمع والمحافظة عليه من خلال نقله إلى الأجيال الناشــئة، وهو ما انتبه إليه كبار المربين كدوركايم الذي رأى أن التربية ما هي إلا العمل الذي تقوم به الأجيال الراشدة في الأجيال التي لم تبلغ بعد سن الرشد، في حين ربط الفيلسوف الألماني فيخته بقاء الأمة الألمانية بالتربية.

لقد كانت قناعة الأستاذ شريط راسخة أن أكثر الوسائل فعالية في حفظ ثقافة الأمة هي التربية، لذلك نجده يحمل المنظومة التربوية والتعليمية المســؤولية الكبرى في الحفاظ على الثقافة الجزائرية الأصــيلة، خاصــة بعد الحرب الظالمة التي أطلقها بعض الجزائريين المتأثرين بثقافة المستعمر ضدها بوعي منهم أو بدونه.

كان الدكتور عبد الله شــريط من المؤمنين بالتعليم وبالوظيفة الخطيرة التي يمكن أن يؤديها في حياة الأفراد والشــعوب، وكان من أشــد القائلين أن التنمية الحقيقية هي تنمية رأس المال البشري، و ليس رأس المال المادي البحت مثلما كان يرى البعض، فـ "إيديولوجية التنمية الحقيقية -اجتماعيا واقتصــاديا وســياســيا- هي إيديولوجية نقل المعرفة لا نقل

المصـــانع ونقل المعرفة هو ما نقصـــده بتنمية الإنســـان"[17] وهو ما لا يتحقق إلا من خلال عملية تعليمية منظمة وواعية نابعة من طبيعة المجتمع وذلك وفق رؤية اجتماعية تجعل من التعليم صورة للمجتمع مثلما رأى المربون الكبار كابن خلدون ودوركايم وديوي.

لذلك على الدولة أن لا تبخل بتوفير الشـــروط المادية الضـــرورية لبناء نظام تعليمي ثوري، لأن "الإنفاق على مدرســـة بالنســـبة للدولة النامية أهم من الإنفاق على مصـــنع، والمعلم في خطواتها الأولى من التنمية يغل عائدا يفوق ما يغله المهندس.[18]

ولا يقصد عبد الله شريط عندما يتكلم عن تنمية الإنسان تعليم الناشئة فقط مثلما يتصـــور بعض المنتســـبين للتربية اليوم، بل يؤكد أن تنمية الإنســـان لا يجب أن تســـتثني الكبار الذين يجب أن ينالوا حضـــهم من التكوين والتثقيف النظري والعملي حتى يتســـنى للدولة والمجتمع تحقيق تنمية متوازنة للثروة البشرية بما يضمن استثمارها بشكل جيد.

لذلك فقد انتقد في كتابه " نظرية حول سـياسـة التعليم والتعريب "النظرة السـلبية للتعليم وعـدم الاهتمـام بـه ووضـــعـه في مرتبـة دنيـا، ونبـه إلى التـداعيـات الخطيرة لهـذا الاسـتخفاف بالتعليم خصـوصـا وأن هذا الأمر قد أصـبح من تقاليدنا الحضـارية التي تعود إلى زمن طويل للأسـف الشـديد، ويسـتند الأسـتاذ شـريط في تأكيد هذه الحقيقة المرة إلى ما أكده العلامة "عبد الرحمن ابن خلدون" في مقدمته، حينما أشـــار إلى ســـوء حال التعليم ومستواه في بلاد المغرب وأفريقيا، خلافا لما كان عليه الأمر في بلاد المشرق.

كما انتقد عبد الله شـريط ظاهرة أخرى لا تقل خطورة عن الأولى وهي ظاهرة اسـتيراد النظم التعليميـة الجـاهزة بـدلا من إنتـاجهـا وإبـداعهـا وفق طبيعـة ومتطلبـات المجتمع الجزائري الفتي، لأن "المدرســـة التي تســـتورد نظمها ومواردها العلمية وحتى لغتها أيضـــا والرجال الممارسـين للتعليم فيها من محيط ومن آفاق غير محيطها وآفاقها ليسـت مدرسـة ثورية"[19]

بالتالي فقد دعا الأستاذ شريط إلى مدرسة أصلية ومتفتحة من حيث برامجها وأهدافها وإطاراتها، لأن المعالجة الشكلية المقتصرة على الجوانب المادية والبيداغوجية لن تؤدي إلى نتيجة مثمرة ما لم يصـــاحب ذلك معالجة المشـــكلات المتعلقة بالإنســـان، وهذه مهمة المثقفين والمربين قبل أن تكون مهمة السياسيين.

آمن الدكتور عبد الله شـريط بأن المدرسـة هي جزء من الثورة الثقافية التي ينبغي أن يقوم بها الجزائريون في سـبيل التمكين لثقافتهم الوطنية ذات الجذور العربية الإسـلامية،

فأكد على أن الثورة الثقافية على مجال التربية تعني القيام " بتغيير جذري لواقع مريض بواقع أصح، وبأنها هي استرجاع الشعب لتراثه الذي فقده بصورة أو بأخرى، وتطوير هذا التراث بحيث يخدم مصالح الجماهير الشعبية ويساعد على ازدهارها المادي والمعنوي.[20]

إن الهدف من هذه الثورة التربوية هي المساهمة في حماية الشعب من الانحرافات الفكرية التي أعاقت، ولزمن طويل، مسيرته وأعاقت طموحه في التقدم واللحاق بركب الأمم المتطورة، وبالتالي فمن شأن هذه الثورة التربوية أن " تضمن له التطور السليم، بتغير العلاقات الإنسانية من الأساس وتغيير الذهنيات وعادات التفكير التي تملي تصرفات الإنسان.[21]

ومثلما هو متعارف عليه على مر التاريخ الإنساني فإن الثورات لكي تنجح لابد لها من أسلحة وطنية، وليس المقصود السلاح المادي فقط، بل القصد أن الوقود الأول للثورة في أي مجال يجب أن يتمثل في أبناء الوطن وبالاستناد على مقومات الأمة من لغة ودين، لذلك، ليس صحيحا الادعاء القيام بثورة في المجال الثقافي والتربوي بالاستناد إلى كوادر أجنبية، بل يجب الاعتماد أولا على المعلم الجزائري الذي يشكل القلب النابض للثورة الثقافية والتربوية المنشودة.

وعندما يتكلم الأستاذ شريط عن المعلم فإنه لا يقصد المعلم الموظف الذي يعتقد أن وظيفته تقتصر على نقل المعلومات الجافة للتلاميذ والحصول على مقابل مالي تبعا لذلك، بل يقصد المعلم المناضل الذي " ينتقل من موقف المتفرج وعدم اللامبالاة، إلى موقف الالتزام الجاد والمشاركة الفعالة المنبثقة من وعيه بمسؤولياته واقتناعه بدوره في المجتمع"[22]

لذلك يتوجب على الأمة إيلاء العناية اللازمة للمعلم، ماديا ومعنويا لأن "مسؤولية المعلم المناضل أكبر من مسؤولية السياسي، فالزعيم السياسي الناجح هو الذي يجعل الشعب يثق فيه، أما مسؤولية المعلم الناجح هو أن يجعل الشعب يثق في نفسه."[23]

التعريب جزء من الثورتين الثقافية والتربوية:

أدلى الدكتور شريط بدلوه في أمهات القضايا والمشكلات التي طرحت في مجتمعه كقضية التعريب التي أسالت كثيرا من الحبر، وأثارت العديد من الصراعات الثقافية والإيديولوجية، فدعا إلى نقاش هادئ يلم بالأبعاد والحضارية والسياسية والفكرية حول

هذه المسألة، بعيدا عن كل أوجه التطرف والتعصب الذي أدى على نهاية المطاف إلى فراغ وضياع.

غير أنه انحاز في نهاية المطاف وبعد بحث وتحليل، إلى اللغة العربية ودعا إلى جعلها لغة لمختلف العلوم، وعدم النظر إليها وكأنها لغة ميتة لأن المشكل بالنسبة للأستاذ شريط لا يكمن في اللغة العربية في حد ذاتها بل يكمن في تدني مستوى أهلها مثلما أشار إليه ابن خلدون.

لذلك ينبغي القيام بمعركة ثقافية شاملة هدفها إثبات ثقافتنا الوطنية العربية الإسلامية أمام الثقافة الفرنسية التي استحكمت في قلوب وأذهان كثير من الجزائريين، رغم تحقيق الاستقلال السياسي.

إن الدفاع عن اللغة العربية هو جزء لا يتجزأ من الثورة الثقافية والتربوية فالاستقلال السياسي يبقى منقوصا إذا لم يتم التمكين لمختلف مقومات الهوية الوطنية، وخاصة اللغة العربية، لذلك فقد كرس الأستاذ شريط جهده لمواجهة القائلين بنهايتها والداعين إلى وضعها في طي النسيان تبعا لمبررات واهية تحمل الكثير من التناقض والتجني والإجحاف، لأن اللغة العربية في نظره استطاعت بما فيها من خصائص ومزايا "أن تحافظ على كيانها طيلة الأطوار المختلفة المتباينة التي مرت بها في عمرها المديد وأن تحافظ على هذا الكيان سليما حيا إلى يومنا هذا رغم التقلبات العنيفة التي هزتها هزا عنيفا عبر التاريخ وخاصة في العصور المظلمة خلال قرون الانحطاط."[24]

فقد كانت اللغة العربية في وقت من الأوقات لغة العلم والحضارة وكانت اللغة العالمية الوحيدة التي حافظت على التراث الإنساني، ولعل حركة الترجمة ونقل التراث اليوناني سليما مبسطا إلى أروبا خير مثال على ذلك، وإذا تدنى حال هذه اللغة اليوم فلا يعود السبب إلى اللغة ذاتها بل إلى تدني حال أهلها وفق رؤية ابن خلدون التي تؤكد على أن الصنائع -بما فيها صناعة اللغة- إنما تزدهر بازدهار العمران والعكس صحيح .

ونعتقد أن انتصار الأستاذ شريط للغة العربية هو أمر محسوم بالنسبة لعربي أصيل تتلمذ في جمعية عربية إسلامية رائدة -ونقصد جمعية العلماء- واحتك بأقطاب العربية في تونس وبلدان المشرق العربي، وخاصة سوريا، في زمن كانت الخطاب القومي العربي يعتلي صدارة الخطابات .

غير أن دفاع الأستاذ عبد الله شريط عن اللغة العربية لم يكن مجرد اندفاع عاطفي من مناضل ومجاهد مخلص، بل كان دفاعا واعيا ومعتدلا يهدف إلى التمكين الحقيقي للغة العربية بين أهلها وفي مجتمعها وهذا لن يتم في نظره إلا بمراعاة عاملين مهمين هما:

1. نشر اللغة العربية وتعميمها في جميع أوساط المجتمع وعدم اختزالها في المدرسة فقط. فاللغة يجب أن تكون لغة الدراسة والتفكير وأداة التنمية؛
2. تيسير اللغة العربية وتبسيطها إلى أقصى حد تتحمله دون المساس بجوهرها. لم يكن الأستاذ شريط رحيما بجنود العربية كما وصفهم، بل وجه لهم انتقادات كثيرة لتقاعسهم عن نقل نضالهم من المرحلة النظرية إلى مرحلة التطبيق العملي، فبقي نضالا أجوفا لم يفد العربية في شيء، بل كان أقرب إلى النرجسية القاتلة منه إلى النضال الحقيقي الذي يدفع بصاحبه إلى المضي قدما في تطوير ما يدافع عنه.

وفي مقابل ذلك، إن دفاع الأستاذ شريط عبد الله عن الثقافة الوطنية الأصيلة لا يعني أبدا انتقاصه من قيمة الثقافة واللغة الأجنبية، فقد كان يعلن مرارا أنه يحترم اللغة والثقافة الفرنسية ويعترف بتقدمها ومسايرتها للعصر، وكان يدعو علنا إلى تعلمها، لكن كلغة ثانية وليس أولى مثلما أراد بعض السياسيين والمسؤولين فرضه آنذاك.

وخلاصة القول، لقد استفاد الدكتور شريط عبد الله من التراث الفلسفي الإنساني استفادة عظيمة، وكان ذلك نتيجة لإلمامه الكبير بمجمل الأفكار والنظريات الفلسفية التي أبدعتها الإنسانية عبر تاريخها الطويل، غير أن استفادته بذلك لم تقتصر على جانب النظري البحت بل استطاع بفضل حسه الفلسفي وشعوره الوطني أن يجعل ذلك التراث في خدمة قضايا الأمة، ف"الأستاذ شريط يتفرد عن جميع أساتذة الجيل الأول بغزارة الإنتاج وارتباطه بالمسائل والقضايا التي تواجه المجتمع الجزائري، ومن هنا فخطابه يتميز بخاصية الاتصال المباشر باليومي والحاضر."[25]

وتبعا لذلك فقد نظر الأستاذ شريط، رحمه الله، إلى التربية نظرة اجتماعية واقعية بحتة على غرار ما ذهب إليه ابن خلدون وجود ديوي، فالمدرسة في نظرة "ليست جزيرة من المثل الثقافية يحيط بها فراغ كالفراغ الذي يحيط بإنسان ابن سينا، إنما هو عضو يغذي ويتغذى من بقية أجزاء الجسم الاجتماعي كله."[26]

ووفق نظرة وظيفية قريبة مما ذهب إليه دور دوركايم آمن الأستاذ شريط بأن التربية هي " تعويد للأبناء على العمل، العمل الجماعي المنسق، كل عضو يؤدي وظيفته في الحياة والنتيجة هي أن الطعام عند ما يكون جاهزا يكون ثمرة مجهود الجميع."[27]

وبناء على ما تقدم نخلص إلى أن الدكتور عبد الله شريط هو نموذج للمفكر وأستاذ الفلسفة الذي آمن بأهمية ودور الفلسفة في معالجة قضايا وإشكالات الواقع الراهن بكل تعقيداته، فكان مثالا حيا للأستاذ الجامعي المناضل الذي يضع تخصصه الأكاديمي في خدمة قضايا أمته، فقد كان " يأخذ من الفلسفة والأدب المسوغات الفكرية للرأي الشخصي وذلك لبناء الحداثة الوطنية المتوافقة مع التراث الإسلامي."[28]

مصادر البحث ومراجعه:

- بغورة الزواوي. (2003). الخطاب الفكري في الجزائر بين النقد و التأسيس. الجزائر: دار القصبة للنشر .
- جلول خدة معمر. (2011). الدراسات الفلسفية الاخلاقية في الفكر المغاربي المعاصر. جامعة وهران، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في الفلسفة.
- حامد عمار. (د.ت). في بناء البشر . مركز تنمية المجتمع.
- عبد الحميد خطاب. (2012). عبد الله شريط فيلسوفا وادبيا وصحفيا وطنيا مجلة دراسات فلسفية (المجلد 8). (قسم الفلسفة، المحرر) جامعة الجزائر 2.
- عبد الرحمان بوقاف. (07 03, 2011). المسألة الثقافية عند المفكر شريط. الجزائر نيوز .
- عبد الله شريط. (1975). الفكر الاخلاقي عند ابن خلدون. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- عبد الله شريط. (1981). المشكلة الايديولوجية وقضايا التنمية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- عبد الله شريط. (2003). المنابع الفلسفية في الفكر الجزائر بين النقد والتأسيس . الجزائر: دار القصبة للنشر.
- عبد الله شريط. (1981). معركة المفاهيم (الإصدار 2). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- عبد الله شريط. (1981). من واقع الثقافة الجزائرية (الإصدار 2). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- عبد الله شريط. (1984). نظرية حول سياسة التعليم والتعريب. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- عبد لله شريط. (1983). تاريخ الثقافة والادب في المشرق والمغرب. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- مجمد العربي ولد خليفة. (2008). الاستاذ عبد الله شريط خصال ومنهج وافكار. كلمة القيت في افتتاح منبر شخصية ومسار. سلسلة منشورات الجيب ، الجزائر ، المجلس الاعلى للغة العربية .

هوامش البحث:

[1] عبد الرحمن بوقاف،" المسألة الثقافية عند المفكر عبد الله شريط " مقال نشر في جريدة الجزائر نيوز بتاريخ 07-03-2011.

[2] المرجع نفسه.

[3] الزواوي بغورة، الخطاب الفكري في الجزائر بين النقد والتأسيس، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2003، ص199.

[4] ولد خليفة، الأستاذ عبد الله شريط،" خصال ومنهج وأفكار"، كلمة ألقيت في افتتاح منبر شخصية ومسار، سلسلة منشورات الجيب الجزائر، إصدارات المجلس الأعلى للغة العربية 2008، ص 8.

[5] جلول خدة معمر،" الدراسات الفلسفية الأخلاقية في الفكر المغاربي المعاصر "، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، جامعة وهران 2010، ص ص 67-68.

[6] عبد الله شريط، المنابع الفلسفية في الفكر الاشتراكي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص6.

[7] عبد الله شريط، المشكلة الإيديولوجية وقضايا التنمية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1981، ص116.

[8] حامد عمار، في بناء البشر، مركز تنمية المجتمع، د.س، ص 19.

[9] المرجع نفسه، ص 2.

[10] ولد خليفة، الأستاذ عبد الله شريط،" خصال ومنهج وأفكار"، ص 6.

[11] عبد الله شريط، المشكلة الإيديولوجية وقضايا التنمية، ص109.

[12] المصدر نفسه، ص111.

[13] عبد الله شريط، من واقع الثقافة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص97.

[14] المصدر نفسه، ص184.

[15] عبد الله شريط، المشكلة الإيديولوجية وقضايا التنمية، ص130.

[16] المصدر نفسه، ص111.

[17] المصدر نفسه، ص 102.

[18] المصدر نفسه، ص 106.

[19] عبد الله شريط، نظرية حول سياسة التعليم والتعريب، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص60.

[20] عبد الله شريط، الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص676.

[21] المصدر نفسه، ص676.

[22] المصدر نفسه، ص676.

[23] عبد الله شريط، نظرية حول سياسة التعليم والتعريب، ص94.

[24] عبد الله شريط، تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص36.

[25] الزواوي بغورة، الخطاب الفكري في الجزائر بين النقد والتأسيس، ص193.

[26] عبد الله شريط، الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، 1975، ص677.

[27] عبد الله شريط، معركة المفاهيم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص111.

[28] عبد الحميد خطاب،" عبد الله شريط فيلسوفا وأديبا وصحفيا وطنيا"، مجلة دراسات فلسفية، العدد " 8 "، جامعة الجزائر 2، سنة 2012، ص09.